جزء من الفصل الثاني
حوارية الخيال والمتخيل في الفن الإسلامي
د. صبا الياسري

- الخيال و المتخيل

يــرى (هـــوبز) " إنّ التخيـل شـكل مـن اشـكال الـذاكرة المتحـررة مـن قيـود التجربـة العقليـة ، اذ يستطيع ان يستحوذ علـى خـزين الصـور الحسية المتراكمـة فـي الـذاكرة ، وعنـدما يكـون محكومـا بهـدف فنـي يسـتطيع ان يـربط بـين انمـاط جديـدة مبهجة" [١] .

ويـربط هوبز[*] الخيـال بالحركـة ،" حركـة الجسـم المسـتمرة و التـي لا يوقفهـا شيء، بـل انـه حتـى عندما توقف حركتهـا الخـارجيـة تستمر حركتهـا الداخليـة ، مثلهـا مثل موج النهر او البحر الذي تحركه الريـاح ، و الـذي يستمر فـي الحركـة ايضـا بعد توقف هذه الرياح ، كذلك حال الانسان في حركته ، فالحركة الداخلية لأعضاء جسمه تستمر حتـى فـي حـالات توقف حركتهـا الخـارجيـة ، فيحلم الانسـان حتـى بعد استبعاد الموضوعات الخارجية وابتعادها ، وبعد ان تختفي هذه الموضوعات ايضا ، وبعد ان تُغلق العينـان نظل نحتفظ بصـورة للشـيء الـذي رأينـاه من قبل ، هذا مـع انهـا تكون صورة اكثر غموضا وايهاما مقارنة بما كانت عليـه الصـورة الاصـلية . ويقول هوبز هـذا هـو مـا تسـميه اللاتـين بالخيـال Imagination [٢] ، فيعلـل هـوبز الخيـال Imagination علـى أسـاس مـادىّ. فالخيـال بالنسـبة لـه مـا هـو إلّا "حاسـة آخـذة فـى الإنحلال ، فكما أنّ الأمواج التى هيجتها الرياح تستمر ، بعد سكون تلك الريـاح، فـى وجودها ولكن بشكل أخفّ ، كذلك حركة المـادة فـى الـدماغ البشرى تظـل ولكـن بحـدّة أقل. فبعدما ينقضـى الحافز المادى الذى يتـرك أثـره علـى الحـواس ، فـإنّ الإحساسـات التـى وُلـدت مـن حركـة المـادة فـى المُخ أثنـاء وجـود الحـافز تولّـد صـوراً ذهنيـة. هـذه الصـور الذهنيّة مُتمايزة عن المُدركات المُحسّة نظـراً ؛ لأنّ حدتها تضـعُف فـى الـذهن مؤلفةً ما نسميّه بالذاكرة . وعنـدما تجتمـع أشـياء مـن هُنـا و هُنـاك من تلـك الـذكريات، سواء عمدَ صاحبُها ذلك الجمع أو أنّه أخطأَ التذكر الصـحيح لضـعف الـذاكرة و بعدها عن مصدر الإحساسات ، فإنّهـا تكـون مـا يُعـرف بالخيـال ، مثـل الحيـوان الـذى نصـفه

جزء من الفصل الثاني
حوارية الخيال والمتخيل في الفن الإسلامي
د. صبا الياسري

رجل ونصفه حصان والرجل العملاق ذو العين الواحدة فى منتصف جبهته . على هذا الأساس يقرر هوبز وجود الأحلام والرؤى والأشباح وعوالم الغيب ، فهو ، طبقاً له، نتائج إضطرابات عضويّة وخلط بين الخيال و الإحساسات. [٣]

إنّ هذا يتجلى من خلال الخيال ذاك " الجانب غير الواقعي في حياة الانسان العقلية وعناصره ، ومقوماته مستمدة من البيئة وعمليات الجمع والتأليف بين تلك العناصر والمقومات وإظهارها بشكل جديد " [٤] ، اي ان البيئة تترك انطباعاتها وملامحها على ادمغتنا لتبتكر فيما بعد بصيغ جديدة وذلك من خلال مفهوم أن "مجموعة الانطباعات البيئية التي تسجل على (القشرة) المخية على نسق الاصوات التي تسجل في آلة التسجيل أو الصور الفوتوغرافية المنطبعة على آلة التصوير .

إنّ الذاكرة عبارة عن تسجيل فسلجي حي ايجابي فاعل ومتفاعل في آن واحد على حين أن التسجيل الآخر تسجيل فيزيائي سلبي جامد .والذاكرة هي الاساس الفسلجي للوظائف العقلية العليا الأخرى .وقد ثبت لدى علماء الفسلجة في الوقت الحاضر أن كل انطباع يسجل على صفحة القشرة المخية لا يزول عن الوجود بتقادم العهد ولا يمحى ابدا و ان الانطباعات مخية قديمة سجلت قوتها بتراكم انطباعات جديدة .وان عملية استعادة ماهو مسجل في القشرة المخية هي ابرز الانطباعات المراد استعادتها او اخراجها من بين اكداس الانطباعات الاخرى التي تراكمت قوتها"[٥].

وعليه فان ما يتشكل من منجز هو بديل للواقع المخزون في الانسان " البديل الخيالي ... يبدو أنه يعد بعدد كبير من الإشباعات ،الهوية ، التكامل ، الاتساق ، السكينة ، النضوج ، الذاتية... "[٦] ضمن علاقات مكونة الصورة اذن "فالصورة باعتبارها مجموعة متشابكة من الأشكال والألوان التي مدلولها هو وصف الصورة"([٧])

وعليه فالجانب الخيالي و المخزون الصوري و المتخيل يعد ضمن ادوات انجاز المركب التشكيلي او الفني وهذه " الأدوات المتعددة لأي عمل فني قد تنسق بطريقة تدفع العناصر الداخلية والمظاهر الخارجية والوسائط الناقلة للاندماج. فللفن

بذلك تأثيرٌ تركيبيٌ. وعليه فإن التركيب مبدأ أساسي في العمل الفني ؛ لأن التجاور الترابطي يعطينا أحساساً تشكيلياً متكاملاً سواء من حيث الشكل أو الوظيفة" [٨].

ورغم ما في المنجز من تركيب إلا انه يبقى ضمن دائرة المحسوس التي هي مركز معرفة الانسان فـ " الصور التي يبدعها الخيال هي نوع من العلاقات المرتبطة بالواقع المحسوس ؛ ولهذه الصور دورها الهام في المعرفة العلمية " [٩] و " الصورة هي شكل فني يحمل معنى ودلالة إنسانية ، بحيث تضعنا على عتبة وجودنا و إنسانيتنا الحقة . "[١٠] .

لازمت الصورة الانسان ، خاصة بعد تطور ونمو قدراته على التجريد و اعادة نسخ الطبيعة جماليا من خلال مفاهيم ورموز لصياغة عالم جديد هو من وجهة هذا الانسان اكثر كمالا من عالمه الفعلي ضمن محاولات ايجاد واقع اخر .

فالصورة اذن هي نتاج لفاعلية الخيال الذي يعيد تشكيل و اكتشاف العلاقات الكامنة بين الظواهر وجمع العناصر المتضادة او المتباعدة فيما يعرف نقديا (الوحدة في التنوع) [١١] ، فهي لا تثير في ذهن المتلقي صورا بصرية فحسب بل تثير صورا لها صلة بما يحمله الانسان من احساسات و ملكات ذهنية ، فالصور ناتجة من تعارف كل الحواس و الملكات . [١٢] ، فالخيال اذن قادر على ابتكار وجمع أشياء اكثر تنافرا في حزمة واحدة بوساطة علاقات وتركيبات تنشط في حالة المتعة والمشاهدة لدى المتلقي.[١٣] والمخيلة بدورها تجمع عناصر متنافرة ومتباعدة لتشكيل صورة تخيلية قائمة على الانسجام والوحدة وقادرة على تمثيل المعاني من خلال الفن كنظام تحولي يتخذ من جعل اللامرئي مرئياً اساساً له، ويشير(نجم حيدر) في وصفه للمخيلة الخلاقة بانها "تبنى من تراكم الصور المحسوسة المتراكمة في الذاكرة يمكن استدعائها على وفق متطلبات الموقف لاغنائه، لذلك فهي تعد ملكة ابتكارية شائعة في الفنانين و العلماء وكبار القادة و السياسيين و المتصفين بالاذهان النيرة و الادبية كونها منطلق الاكتشافات و الاختراعات منذ اقدم الازمنة الى وقتنا الحاضر "[١٤] .

وتسلك الصورة من خلال مفهوم التصور مسلك واضح لأدراك علاقات وقواعد يحكمها التوحد في سياق جديد ، تتعالق الصورة والإدراك من خلال هذا

جزء من الفصل الثاني
حوارية الخيال والمتخيل في الفن الإسلامي
د. صبا الياسري

المفهوم التصور، والذي يمثل حضور الأشياء الكلية عند العقل ويراد بالإدراك اي وظيفة الإدراك تتعالق كنظام حيث تبرز وظيفة النظام الذي تنظم فيه الماديات وتترك من خلاله الأشياء حيث العلاقة الترابطية بين طريقة التفكير والمادة والشكل وصولاً إلى الصور الذهنية ، حيث يتم إرسال ما يمكن تسميته بالتغذية الحسية ليقوم الدماغ بتفسيرها ، تعتمد التجربة الماضية والمولدة في تفاعل الأنا مع البيئة، فضلاً عن خلفيته الثقافية والاقتصادية والذكاء وما يحمله من مفاهيم [١٥].

وهذه الصور الذهنية ، هي صور تكوين و احساس بصري يحدث عادة بعد ان يكون المنبه الخارجي الذي سببه قد كف عن العمل . [١٦] وهي غير واضحة المعاني فلا تدرك إلا بمرجعيات و تخمينات و تساؤلات ، ونستعيد بها شيء قد رايناه سابقا .

اذن فلملكة " الخيال القدرة التي بواسطتها تستطيع صورة معينة أو إحساس واحد أن يهيمن على صور عّدة أو أحاسيس (في القصيدة) فيحقق الوحدة فيما بينها بطريقة أشبه بالصهر." [١٧] وذات الانسان تصبح " دليل أول، وصانع للدلالة، إذ تمكن خلال العصور من النظر الى نفسه والى الكون وما فيه. والى التخيل، فوجد نفسه أمام أشياء لها دلالات وتسميات عديدة. إذ وظف عقله للكشف عن هذه الدلائل". [١٨]

يؤكد الباحثون في مجال الدراسات الانسانية أن "الخيال وحده هو الذي يستطيع أن ينعش باستمرار الصورة التقليدية ، وهو الذي يعيد الأشكال إلى الحياة دوماً، وذلك بتحويلها من حال إلى حال، أو من لحظة إلى لحظة"[١٩] .غير غافلين ارتباط العلم بالخيال ، فاغلب العلوم كانت عبارة عن خيال حتى عباس بن فرناس ومحاولة طيرانه كانت خيال فتح افاق لابتكار الطائرة فيما بعد.

فالمتخيل ناتج عن العلاقات الاجتماعية شأنه شأن الظواهر الطبيعية الأخرى يخضع للتطور الجدلي وصراع الأضداد وتحولاتها. وهنا يقدم المتخيل الواقع المنعكس في ذات الفنان، أي إخضاع المتخيل لغائية الفنان في اختياره، ولا يشترط هذا الواقع ، في النقل الحرفي المباشر، بل المشاركة في خلق عالم لا يزال في طور التكوين وبنائه، مع اكتشاف إيقاعه الداخلي[٢٠].

و " الذات عبر المخيلة كثيراً ما تغير من نظم التركيب بما ينسجم و يتلائم مع المتحول الآني على السطح التصويري بقصد تنحية الموضوعي.

وعليه فالمفهوم الذاتي في المعرفة الفنية هو موضوعي من حيث نظمهِ المتحولة وإعادة الصياغة بقصد التفرد إلى الحد الأدنى من الخصوصية وهذا لا يتحقق إلا بقدرة وعي متعالية متفوقة تعي نظم العلاقات وآليات التحليل والتركيب وإعادة التركيب بما يضمن تحقق فعل الإبداع ." [٢١] وهذه "الأشكال المصطنعة ، لا تحمل الصدق الذي يحتاجه الفنان ، فالعمل الفني خلق حر مصدره ذات الفنان غير المقيدة بقوانين"[٢٢].

و قد تكون من اهم ميزات الانسان هي قدرته على استدعاء واستحضار وقائع و مدركات اعتمادا على متراكم الخبرة لتكوين الاشكال و الصور التخيلية ولفهم هذه الاشكال و استيعاب تلك الصور تعد دراسة الخيال والتخيل مدخلاً منطقياً لذلك، فالصورة ، هي " اداة الخيال ووسيلته ومادته الهامة التي يمارس فيها ومن خلالها فاعليته ونشاطه " [٢٣] .

وعليه لابد من تفسير هذه الصور و بنياتها ، لان من اهم من درس خصائص هذه البنيات هو (سارتر) في كتابه المتخيل : علم نفس ظاهرات الخيال (١٩٤٠) إذ يطلق على بعض بنى نسيج الوعي اسم الوعي الخيالي ، وهي بنى تولد وتنمو و تختفي في ضوء قوانين تتناسب معها ولها خصائص .

وتقود هذه الخصائص المميزة للصور نحو تعريف لحالة الامتلاك للصور او التفكير من خلالها ، وعلى النحو التالي : الخيال فعل خاص بالتخيلات الخاصة بموضوع او تصور متخيل لموضوع غائب او غير موجود كجسد ما بوساطة المحتوى المادي او العقلي الذي يكون موجودا فقط بوصفه مناظرا للموضوع المتخيل، ولنظرية سارتر ميزة اشتمالها على اشكال عدة من الصور و الاخيلة ، ومنها – تمثيلا لا حصرا – احلام اليقظة و احلام النوم و الهلاوس ، تلك التي يعزو سارتر اليها نوعا خاصا غريبا من التلقائية ، انها نوع من الافتتان و الولع و القيد الارادي او العبودية الارادية للوعي امام الصور . [٢٤]

جزء من الفصل الثاني
حوارية الخيال والمتخيل في الفن الإسلامي
د. صبا الياسري

و الفنان هنا هو " المصور الذي يكون خياله نشطاً ذلك الذي لا يختلف عمله عن تفكيره إلا قليلاً لكنه لو عرف كيف ينشط خياله لأنتج فناً رائعاً " [٢٥]. ضمن تراكم خبراتي كما يؤكد ذلك ديوي في طروحاته الفكرية، على أن "التخيل يقوم بعقد رابطة بين التجريدي والملموس، فهو ينزل بالأفكار إلى أرض الواقع ويجعلها قريبة من الخبرة الفعلية"[٢٦]، وعليه يكون متراكم الذاكرة اساس في عمليات اظهار الصور التخيلية وما تستلزمه هذه التحولالات الابداعية من تركيب و تحوير ، لتنتج الصورة المركبة القائمة على " نظام من العلاقات الكائنة بين مؤسسات الصورة كعلاقات الإثبات والنفي، والتداخل والتمازج ، والجزئي والكلي وغيرها من العلاقات التي تقع ضمن دائرة منطق التحليل والتركيب الافتراضي لبنائية الصورة المركبة في العمل الفني. دراسة الصورة المركبة في العمل الفني تشتغل بمستويين الأول دراسة الصورة المركبة الذهنية قبل الإنجاز والثانية دراسة الصورة المركبة بعد مباشرة الصورة الذهنية داخل المتحقق التقني الإظهاري لصفة الإنجاز ، وذلك بغية الوصول إلى تكاملية العمل الفني وكشف مدياته التركيبية"[٢٧]، فالعمل الفني يقوم أساساً على خلخلة النظام داخل المعادلة لتوليد علاقات ومن ثم تكوينات متنوعة ومبتكرة تغير مسار الإدراك والتلقي المفترض منطقياً تحقيقهُ وفق فرضيات المعادلة فليس بالضرورة أن تكون السماء زرقاء وأوراق الأشجار خضراء فهي تكتسب صفة لونية وفق ما تقتضيه حسابات يضعها الفنان للعمل الفني بوعي أول لنظام العلاقة المنطقي وبوعي ثاني لنظام التحول وإعادة التركيب . وعليه نخلص إلى أن العمل الفني هو الوسيلة أو النظام الذي يمكن تحويل الواقع من خلاله إلى تعبير تشكيلي من خلال علاقات محددة ، وهي اختراق لهذا الواقع من أجل الإمساك بتركيبهِ الداخلي عن طريق إدراك مؤسساته التي يمكن إخضاعها لإشراف العقل ، حتى نستطيع بعد ذلك أن نعيد هذه المؤسسات وهذا التأليف نفسه في حقيقة مختلفة هي حقيقة اختراق الطبيعة بوسائل وأنظمة الرؤية الشكلية وتحطيم توازنها الإدراكي المنطقي [٢٨] ، وضمن تراكيب متنوعة رمزية المنحى كما يوضحها(لاكان[*]) "بأن التراكيب الرمزية والخيالية تحدث في عالم هو أكبر منها"[٢٩]، عالم الذات و

جزء من الفصل الثاني
حوارية الخيال والمتخيل في الفن الإسلامي
د. صبا الياسري

المخزون الصوري ، فتكوين الصورة في الرسم ليست سهلة التنفيذ أو التكوين، لانها تعتمد على الإدراك واللاوعي في آنٍ واحد وان مكوناتها من خطوط وأشكال تعد دلالات بإمكان المتلقي أو الناقد التوصل الى معرفتها من خلال قراءة النص الصوري ، والرسم بلاغ بصري ، ومن خلال الالوان و ما لها من معطيات و صياغة الاشكال وما تحمله من مضامين ورموزاً ودلالات.[٣٠]

اما مصدر تلك الصور المتخيلة و المركبة فهو الشعور وهو" الينبوع والمصدر الفياض للابداع الفني من دون العقل الواعي الذي ليس من خصائصه الابتكار، وانما تنظيم الافكار وتصنيفها وكذلك النقد مع القياس و الموازنة ، وكما يؤكد ذلك فرويد [*] ويونج [*] على ان الابداع الفني مرجعه اللاشعور ، اما ما يدفع الفنان الى الابداع في تلك الصور هي البواعث الضاغطة المتجسدة بالحياة النفسية لدى الفنان من ناحية ، وفي ضغط الواقع الخارجي من ناحية اخرى، إذ يدفعه ضغط هذه البواعث الى محاولة الوصول للوسيلة التي تمكنه من اشباع خياله عن طريق الفن بينما يقول يونج :ان" سبب الابداع الفني في المستوى الرفيع انما يكون مبعثه تقلقل للاشعور الجمعي في فترات الازمات الاجتماعية، مما يقلل من توازن الحياة النفسية لدى الفنان ويدفعه الى محاولة الحصول على توازن جديد " [٣١]

و يوضح العالم رج [*] عام ١٩٦٠ في كتابه عن (الخيال) "ان هذه المنطقة هي منطقة الحدس الحقيقي ، وانها تكون غالبا متحررة من سيطرة الرقابة المنطقية الصارمة ومن قبضة العقل...،وانها تشكل الارضية الاساسية للابداع...، منطقة العقل العابر للحدود إذ تكون حركة الوعي هنا متسمة بالحرية ، وحيث يحيط هذا العقل بالصور ويقترب من ابسط المعاني الرمزية لها ، وتكون هذه المعاني الممتزجة بالصور البدايات الحقيقية للابداع وحل المشكلات . فعندما تكشف هذه الصورة

جزء من الفصل الثاني
حوارية الخيال والمتخيل في الفن الإسلامي
د. صبا الياسري

الرمزية تولد الفكرة وتحدث الومضة الابداعية التي يمكن ان ينفذ من خلالها عمل ابداعي جديد " [٣٢]

ورغم ما تتسم به الاعمال المتخيلة من تدحرج بين وعي ولا وعي إلا انه يبقى للعمل الفني "خصوصية وشروط بوصفة كياناً قائماً بذاته حتى وإن خرج عن دائرة المنطق إلى مديات الحكم والسحر والتأمل واللاقانون كما هو الحال في الرسم المطلق في تجريده" [٣٣].

مما تقدم نستنتج أن المتخيل ناتج عن نفس الفنان المحملة بالمشاعر والعاطفة، وكذلك صدق الحالة النفسية التي معها يكون الحدس أكثر تماسكاً ووحدة، فالحدس هو تشيّؤ مثالي يتموضع بصورة في صورة خيالية لمتخيل يرتبط بفعل الانفعال العاطفي، ناتج عن وحدة الشكل والمضمون، أي عاطفة وصور تؤدي إلى وحدة حدس ناتجة عن جمع صور المخيلة، لينتج عنها فيما بعد مُتخيّل مُبتكر، غير محاكي للواقع.